التغليب في لغة العرب وقضية "المرأة في قواعد النحو والصرف"

تحليل ونقد

بقلم الدكتور / على السنوسى محمد حسين

تمهيد :

« صار مستقرا لدى الكثيرين أن أشكال العلاقات الاجتماعية المتمثلة فى القيم والمفاهيم ، والعادات تقف وراء ابداع المجتمعات لآدابها ولغتها وقوانين أخلاقها وكل نتاجها الثقافى .. هذه قضية يفجرها شيخ من باحثى اللغة ، وكيف تحكمت هذه الأشكال الاجتماعية فى المجتمع العربى القديم فى قواعد اللغة العربية » .

تصدرت هذه الكلمات مقالا تحت عنوان : « قضية المرأة فى قواعد النحو والصرف » نشر بمجلة « العربى » الكويتية فى عددها الحادى والستين بعد المائة الثالثة — ربيع الآخر ١٤٠٩هـ ، ديسمبر ١٩٨٨م « صفحة : منتدى العربى » .. والمقال بقلم الأستاذ / محمد حسن الصورى وقد أشارت المجلة الى أنه كاتب وباحث لغوى من القطر العراقى(١) .

---

(١) انظر هامش ص ١١٦ من مجلة العربى العدد ٣٦١ .

وقد شغل المقال الصفحات ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ٢٢٩ من عدد المجلة السالف الذكر .

والحقيقة التى لا تنكر أن عنوان المقال مثير للانتباه وملفت للنظر وداع الى الاطلاع على ما اشتمل عليه .. ولما كنت متخصصا فى الدراسات النحوية والصرفية وجدتنى مشدودا الى قراءاته والاطلاع عليه فاستجبت لنداء « منتدى العربى » وقرأت المقال عدة مرات الى أن استقرت فى ذهنى فكرته .. فأفرغت لها عقلى .. وجندت لها بحثى ودرسى ... ولست أخفى سرا اذا قلت اننى لم أفهم مضمون عنوان المقال الا بعد الاطلاع عليه وقراءته كلمة كلمة .. لأنه عنوان غريب ومريب على الدراسات النحوية والصرفية .. فالمرأة لم يعرف لها مكان فى هذه الدراسات .. وربما عرف ما يدل عليها وهو المؤنث أو التأنيث ... ومن هنا كانت الغرابة .. وبادىء ذى بدء أستطيع أن أقول ان أشكال العلاقات الاجتماعية تقف وراء ابداع المجتمعات لآدابها . وأعنى بهذه الآداب : الشعر والنثر وما يتضمنه كل منهما من أغراض .. فهذا مما لاشك فيه تتحكم فيه العلاقات الاجتماعية وأشكالها .. ولكن أن تتحكم هذه الأشكال الاجتماعية فى المجتمع العربى القديم فى قواعد اللغة العربية فهذا ما لا أوافق عليه ولا أقره .. لأن الموافقة عليه والتسليم به أمر خطير .. فاللغة العربية لغة القرآن الكريم وحاشا لله أن تبنى لغته على الأهواء الشخصية والعلاقات الاجتماعية .

وباطلاعى على المقال السابق وجدت أن كاتبه بنى قضيته على تغافل سنة من سنن العرب وهى التغليب .. ومن هنا رأيت أن أبنى بحثى على أمرين هما : اثبات هذه القاعدة العربية ألا وهى «التغليب»، ثم الرد على صاحب المقال وعلى كل ما اشتمل عليه بالحجة والدليل .

الأمر الأول : التغليب سنة من سنن العرب :

من الأصول التى بنيت عليها لغة العرب التغليب وهو : أن يجتمع شيئان فيجرى حكم أحدهما على الآخر(٢) ٠

وقاعدة التغليب تسير على تغليب الشيء لتناسب بينهما أو اختلاط قال ابن هشام فى المغنى : « القاعدة الرابعة أنهم يغلبون على الشيء ما لغيره لتناسب بينهما أو اختلاط »(٣) ٠

كما أنه لابد للمغلب من مزية يمتاز بها ولذا قال العلامة الأمير فى حاشيته على المغنى : «غلب هنا المذكر اذ لابد للمغلب من مزية»(٤) ٠

وقد أشار ابن فارس فى كتابه « الصاحبى » الى أن باب التغليب سنة من سنن العرب(٥) ٠

١ ــ تغليب الأقرب على الأبعد :

نقل السيوطى فى الأشباه والنظائر عن ابن فلاح أنه قال : «العرب تغلب الأقرب على الأبعد بدليل تغليب المتكلم على المخاطب وهما على الغائب فى الأسماء نحو : أنا وأنت قمنا ، وأنت وزيد قمتما »(٦) ٠

ثم قال السيوطى تعقيبا على الكلام السابق : « واستدل بذلك على

---

(٢) انظر الأشباه والنظائر للسيوطى ١/١٦٠ ط أولى ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م دار الكتب العلمية ــ بيروت ٠

(٣) انظر مغنى اللبيب بحاشية الأمير ٢/١٩٤ ط الحلبى ٠

(٤) المرجع السابق نفسه ٠

(٥) انظر الصاحبى ص ٧ تحقيق السيد أحمد صقر ط الحلبى ٠

(٦) انظر الأشباه والنظائر ١/١٦٠ ٠

أن المضارع حقيقة فى الحال مجاز فى الستقبال ، لأن الحـــال أقرب ، والعرب تغلب الأقرب على الأبعد »(٧) ٠

ومن تغليب المخاطب على الغائب تغليب اســم المخــاطبين على الغائبين فى قوله تعالى « اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »(٨) قال ابن هشام : « لأن لعل متعلقة بـــ (خلقكم) لا بـــ (اعبدوا) ٠٠ »(٩) ٠

وقال الزمخشرى فى الكشاف : « فان قلت : كما خلق المخاطبين لعلهم يتقون ، فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك ، فلم قصره عليهم دون من قبلهم ؟ قلت : لم يقصره عليهم ولكن غلب المخاطبين على الغائبين فى اللفظ والمعنى على ارادتهم جميعا »(١٠) ٠

وقال العلامة أبو السعود فى تفسيره لهذه الآية : « فالجملة اما حال من فاعل خلقكم أى طلب منكم التقوى أو من مفعوله وما عطف عليه بطريق تغليب المخاطبين على الغائبين لأنهم المأمورون بالعبادة أى خلقكم واياهم مطلوبا منكم التقوى »(١١) ٠

ومن تغليب المخاطب على الغائب قوله تعالى « جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه »(١٢) قال ابن هشام : « فان

---

(٧) المرجع السابق نفسه ٠
(٨) من الآية ٢١ من سورة البقرة ٠
(٩) انظر المغنى بحاشية الأمير ٢/١٩٥ ٠
(١٠) انظر الكشاف ١/٢٣١ : ٢٣٢ ط دار المعرفة ــ بيروت ٠
(١١) انظر تفسير أبى السعود المسمى : ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ١/٦٠ ط احياء دار التراث العربى ــ بيروت ٠
(١٢) من الآية ١١ من سورة الشورى ٠

الخطاب فيه شامل للعقلاء والأنعام فغلب المخاطبون والعاقلون على الغائبين والأنعام »(١٣) .

وقال الزمخشري في الكشاف عند تفسير هذه الآية (١٤) :ـ « والضمير في (يذرؤكم) يرجع الى المخاطبين والأنعام مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل وهي من الأنعام ذات العلتين »(١٥) .

وفي حاشية الجمل على الجلالين : « قوله (يذرؤكم فيه) : يجوز أن تكون في على بابها ، والمعنى : يكثركم في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا حتى كان بين ذكورهم واناثهم التوالد ، والضمير في (يذرؤكم) للمخاطبين والأنعام وغلب العقلاء المخاطبون على غيرهم الغيب »(١٦) .

وفي تفسير الجلالين : « والضمير للأناس والأنعام بالتغليب»(١٧).

٢ ـ تغليب الملائكة على ابليس :

ومن صور التغليب في لغة العرب تغليب الملائكة على ابليس حتى استثنى منهم في « فسجدوا الا ابليس »(١٨) قال الزمخشري في

---

(١٣) انظر المغني بحاشية الأمير ١٩٥/٢ .

(١٥) نقل العلامة الجمل في حاشيته كلام الزمخشري هذا ثم علق على قوله « وهي من الأحكام ذات العلتين » فقال : « قال الشيخ وهو اصطلاح غريب ويعني أن الخطاب يغلب على الغيبة اذا اجتمعا » حاشية الجمل المسماة : الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ٥٤/٤ ط الحلبي .

(١٦) انظر المرجع السابق نفسه .

(١٧) انظر تفسير الجلالين بهامش حاشية الجمل ٥٤/٤ .

(١٨) من الآية ٣٤ من سورة البقرة .

الكشاف : « استثناء متصل لأنه كان جنيا واحدا بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورا بهم فغلبوا عليه فى قوله (فسجدوا)،ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم ، ويجوز أن يجعل منقطعا »(١٩) .

وفى تفسير أبى السعود : « استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فى (فسجدوا) ثم استثنى استثناء واحد منهم ، أو لأن من الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وهم منهم ، أو لأن الجن أيضا كانوا مأمورين بالسجود له لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم ، أو منقطع »(٢٠) .

٣ ــ تغليب المذكرين على المؤنث :

ومن صور التغليب فى اللسان العربى تغليب المذكرين ــ أى جماعة المذكر ــ على المؤنث قال ابن هشام(٢١) : حتى عدت منهم فى « وكانت من القانتين »(٢٢) وأمثال هذه الآية فى القرآن الكريم كثير ــ وسوف أسجل على هذه الصفحة ما ذكره المفسرون ومعربو القرآن الكريم حتى يتضح لنا أن تغليب المذكر على المؤنث سنة من سنن العرب واستعمال من استعمالاتهم تتميز به لغتهم :

قال الزمخشرى فى الكشاف عند تفسير هذه الآية : « فان قلت : لم قيل (من القانتين) على التذكير ؟ قلت : لأن القنوت صفة تشمل من

---

(١٩) انظر الكشاف ١/٢٧٣ وقد نقله ابن هشام فى المغنى بحاشية الأمير ٢/١٩٥ .

(٢٠) انظر تفسير أبى السعود ١/٨٧ .

(٢١) انظر المغنى بحاشية الأمير ٢/١٩٥ .

(٢٢) من الآية ٩١٢ من سورة التحريم .

قنت من القبيلين فغلب ذكوره على اناثه ومن للتبعيض ، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هـارون أخى موسى صلوات الله عليهما »(٢٣) .

وقال أبو السعود فى تفسيره : « (وكانت من القانتين) أى من عداد المواظبين على الطاعة والتذكير للتغليب والاشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى عدت من جملتهم أو من نسلهم لأنهـا من أعقاب هارون أخى موسى عليهما السلام »(٢٤) .

وفى تفسير النسفى : « لما كان القنوت صفة تشـمل من قنت من القبليين غلب ذكوره على اناثه »(٢٥) .

وفى حاشية الجمل : « يجوز فى من وجهان أحدهما : أنها لابتداء الغاية ، والثانى : أنها للتبعيض فعلى الأول لا يلزم التغليب فى الكلام لأنها مبتدأة ومنشأة من القوم أى الرجال الصالحين ، اذ لفظ القوم خاص بالذكور على ما قاله بعضهم ، وعلى الثـانى يحتـاج للتغليب فيستعمل لفظ القانتين فى مجموع الذكور والاناث حتى يصح كونهـا بعض ذلك المجموع »(٢٦) .

---

(٢٣) انظر الكشاف ٤/١٣٢ ونكت الأعراب فى غريب الاعراب فى القرآن الكريم للزمخشرى ص ٣٥٤ تحقيـق د. محمد أبو الفتوح شريف ط دار المعارف .

(٢٤) انظر تفسير أبى السعود ٨/٢٧٠ .

(٢٥) انظر تفسير النسفى المسمى : بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ٤/٢٠٥ ط المكتبة الحسينية ١٣٣٢هـ .

(٢٦) انظر حاشية الجمل ٤/٣٧٢ .

وفى اعراب القرآن للنحاس : « (وكانت من القانتين) أى من القوم القانتين ، أقيمت الصفة مقام الموصوف »(٢٧) .

أرأيت كيف كان تغليب المذكر على المؤنث سنة من سنن العرب واستعمالا من استعمالاتهم تميزت به لغتهم ؟!

٤ ــ تغليب ما يعقل على ما لا يعقل :

وهذه صورة من صور التغليب ــ قال ابن فارس فى معرض استدلاله بالآية الكريمة « وعلم آدم الأسماء كلها »(٢٨) على أن لغة العرب توقيف : « فان قال قائل : لو كان ذلك كما نذهب اليه لقال (ثم عرضهن أو عرضها)(٢٩) فلما قال (عرضهم) علم أن ذلك لأعيان بنى آدم أو الملائكة لأن موضع الكناية فى كلام العرب أن يقال لما يعقل: عرضهم ، ولما لا يعقل : عرضها أو عرضهن ، ؟ قيل له : انما قال ذلك ــ والله أعلم ــ لأنه جمع ما يعقل وما لا يعقل فغلب ما يعقل وهى سنة من سنن العرب ــ أعنى باب التغليب ــ وذلك كقوله جل ثناؤه « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شىء قدير »(٣٠) فقال (منهم) تغليبا لمن يمشى على رجلين وهم بنو آدم »(٣١) .

---

(٢٧) انظر اعراب القرآن للنحاس ٤٦٦/٤ تحقيق د. زهير غازى زاهد ط عالم الكتب بيروت ثانية ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م .

(٢٨) من الآية ٣١ من سورة البقرة .

(٢٩) أى فى قوله « ثم عرضهم على الملائكة » فى الآية السابقة .

(٣٠) آية ٤٥ من سورة النور .

(٣١) انظر الصاحبى ص ٦ ، ٧ .

وقال ابن هشام : « ولأجل الاختلاط أطلقت (من) على ما لا يعقل فى نحو (فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) فان الاختلاط حاصل فى العموم السابق وفى قوله تعالى (كل دابة من ماء) وفى (من يمشى على رجلين) اختلاط آخر فى عبارة التفصيل فانه يعم الانسان والطائر »(٣٢) .

وقال الزمخشرى : « ولما كان اسم الدابة موقعا على المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه كأن الدواب كلهم مميزون فمن ثمة قيل : فمنهم »(٣٣) .

وفى حاشية الجمل : « قوله (فمنهم) الضمير راجع لكل باعتبار معناه وفيه تغليب العاقل على غيره »(٣٤) .

٥ ــ تغليب الجماعة على الواحد :

ومن التغليب قوله تعالى (أو لتعودن فى ملتنا) بعد (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا)(٣٥) فانه عليه الصلاة والسلام لم يكن فى ملتهم قط بخلاف الذين آمنوا معه(٣٦) .

قال الزمخشرى فى الكشاف عند تفسير هذه الآية : « فان قلت : كيف خاطبوا شعيبا عليه السلام بالعود فى الكفر فى قولهم (أو لتعودن فى ملتنا) وكيف أجابهم بقوله : (ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله

---

(٣٢) انظر المغنى بحاشية الأمير ٢/١٩٥ .
(٣٣) انظر الكشاف ٣/٧١ .
(٣٤) انظر حاشية الجمل ٣/٢٣٢ .
(٣٥) من الآية ٨٨ من سورة الأعراف .
(٣٦) انظر المغنى بحاشية الأمير ٢/١٩٥ .

منها وما يكون لنا أن نعود فيها)(٣٧) والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر الا ما ليس فيه تنفير فضلا عن الكبائر فضلا عن الكفر ؟ قلت : لما قالوا : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك،عطفوا على ضميره الذين دخلوا فى الايمان منهم بعد كفرهم قالوا : لتعودن، فغلبوا الجماعة على الواحد فجعلوهم عائدين جميعا اجراء للكلام على حكم التغليب وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال : ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ، وهو يريد عود قومه ، الا أنه نظم نفسه فى جملتهم وان كان بريئا من ذلك اجراء كلامه على حكم التغليب »(٣٨) •

وفى تفسير أبى السعود قال : « وادخالهم لهم عليه السلام فى خطاب العود مع استحالة كونه عليه السلام فى ملتهم قيل ذلك انما هو بطريق تغليب الجماعة على الواحد »(٣٩) •

وفى حاشية الجمل : « وقوله : وعلى نحوه أى نحو التغليب المذكور الواقع منهم ونحوه وهو التغليب الواقع منه وقوله : أجاب أى شعيب تغليب فى قوله المقدر وهو الذى قدره الشارح بقوله•أنعود فيها ، وفى الذى صرح به بقوله : قد افترينا »(٤٥) •

وفى الجلالين : « وغلبوا فى الخطاب الجمع على الواحد لأن شعيبا لم يكن فى ملتهم قط وعلى نحوه أجاب »(٤١) •

---

(٣٧) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف •

(٣٨) انظر الكشاف ٢/٩٥ : ٩٦ •

(٣٩) انظر تفسير أبى السعود ٣/٢٤٨ •

(٤٠) انظرحاشية الجمل ٢/١٦٥ •

(٤١) انظر تفسير الجلالين ٢/١٦٥ •

صور أخرى من التغليب :

لم ينكر أحد أن العرب غلبوا جانب المذكر على المؤنث وذلك لأن هذا أمر طبيعى لما للمذكر من مزية على المؤنث ، فالمذكر يعنى القـوة والقدرة ويعنى التمكن والتمكين ، أما المؤنث فيعنى الضعف والوهن . وهذه طبيعة البشر وتلك هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله .

ومن هنا فاننا نراهم قد غلبوا القمر ــ وهو مذكر ــ على الشمس ــ وهى مؤنث ــ فقالوا : القمران(٤٢) كما للمذكر من مزية حرم منها المؤنث ولذا قال العلامة الأمير فى حاشـيته على المغنى : « غلب هنـا المذكر ــ يعنى القمر ــ اذ لابد للمغلب من مزية »(٤٣) .

ومما جاء منه فى الشعر قول المتنبى(٤٤) :

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتنى القمرين فى وقت معـا

قال ابن هشام : « أى الشمس وهو وجهها وقمر السماء »(٤٥) ثم قال : « وقال التبريزى : يجوز أنه أراد قمرا وقمرا لأنه لا يجتمـع قمران فى ليلة كما أنه لا تجتمع الشمس والقمر »(٤٦) .

---

(٤٢) انظر المغنى بحاشية الأمير ١٩٤/٢ والأشباه والنظائر ١٥٩/١

(٤٣) انظر حاشية الأمير على المغنى ١٩٤/٢ .

(٤٤) انظر شرح ديوان المتنبى لعبد الرحمن البرقوقى ٤/٣ ط . دار الكتاب العربى ــ بيروت سنة ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م .

(٤٥) انظر المغنى بحاشية الأمير ١٩٤/٢ .

(٤٦) المرجع السابق نفسه .

ثم قال ابن هشام : « وما ذكرناه أمدح ، والقمران فى العرف الشمس والقمر »(٤٧) .

وقالوا : الأبوين فى الأب والام(٤٨) ومنه قوله تعالى « ولأبويه لكل واحد منهما السدس »(٤٩) .

تغليب المذكر على المذكر :

لم يقتصر الأمر على تغليب المذكر على المؤنث انما تعداه الى تغليب هذا المذكر على مذكر مثله وذلك أيضا راجع الى مزية لهذا المذكر على المذكر الماثل له وهذا يدل بما لا يدع مجالا للشك والريب على أن هذه القاعدة أعنى — قاعدة التغليب — تسير على وتيرة واحدة ومنهج واحد وهو أن التغليب يكون للأقوى والأمكن والأظهر .. كما يدل أيضا على أن العربى لم يغلب شيئا على شىء لهوى فى نفسه .. ومن هنا غلبوا المذكر على المذكر...فقالوا : العمرين فى أبى بكر وعمر فغلبوا الأخف، وقيل : لطول مدة عمر فكثر استعماله(٥٠) .

وقيل : المراد عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز فلا تغليب،ورد بأنه قيل لعثمان — رضى الله عنه — : نسألك سيرة العمرين قال : نعم(٥١) . وهذا يعنى أن المراد : أبو بكر وعمر لأن عمر بن عبدالعزيز لم يكن قد ظهر .

---

(٤٧) المرجع السابق نفسه .
(٤٨) انظر المغنى بحاشية الأمير ٢/١٩٤ والأشباه والنظائر ١/١٥٩
(٤٩) من الآية ١١ من سورة النساء .
(٥٠) انظر حاشية الأمير على المغنى ٢/١٩٥ .
(٥١) انظر المغنى بحاشية الأمير ٢/١٩٥ .

وقالوا : العجاجين فى : رؤبة والعجاج(٥٢) ــ ولاشك أن التغليب هنا للأقوى فالعجاج أصل لأنه الأب ورؤبة فرع لأنه الابن ولاريب أن الأصل أقوى من الفرع ومقدم عليه .

وقالوا : المروتين فى : الصفاء والمروة(٥٣) . ولعل التغليب هنا من باب تغليب الأخف على الأثقل .

ومن تغليب المذكر على المذكر قولهم : المشرقين والمغربين(٥٤) ، وقالوا : الخافقان فى المشرق والمغرب وانما الخافق المغرب(٥٥) .

تغليب المؤنث على المذكر :

ومما يدل على أن قاعدة التغليب لم تبن على أساس من هوى النفس تغليب مؤنث على المذكر فقالوا : ضبعان فى تثنية : ضبع للمؤنث وضبعان للمذكر ولم يقولوا : ضبعاتان(٥٦) .

والتغليب هنا للأخف قال فى اللسان : « ويقال للذكر والأنثى ضبعان ، يغلبون التأنيث لخفته هنا »(٥٧) .

الامر الثانى : الرد على صاحب مقال « قضية المرأة فى قواعد النحو والصرف » :

لقد بنى الكاتب مقاله على أساسين :

---

(٥٢) المرجع السابق نفسه . والأشباه والنظائر ١/١٥٩ .وفى اللسان (عجج) : « يقول : أشعر الناس العجاجان أى رؤبة وأبوه ».

(٥٣) المرجعين السابقين .

(٥٤) المرجعين السابقين .

(٥٦) انظر الأشباه والنظائر ١/١٥٩ .

(٥٧) انظر اللسان (ضبع) ط دار المعارف.

الأول : اهانة العرب للمرأة فى لغتهم ورفع شأن الرجل •

الثانى : انكار قاعدة «التغليب» فى اللغة العربية •

أما الأساس الأول فهو المحور الذى ارتكز عليه فى كتابة المقال ثم جاء الأساس الثانى تابعا للأساس الأول •

ومما هو جدير بالذكر والتسجيل أن الكاتب صدر مقاله بقوله « ليس من الميسور لنا أن ننعم بأسرار اللغة العربية ببساطة(٥٨) اذ لابد لنا من بذل جهود كبيرة حتى نستطيع أن نصل الى هدف حيوى منها ••• »(٥٩) •

ثم يقول بعد ذلك : « وأنا بعد أن بذلت دراسات متواصلة طوال ربع قرن فى تتبع لسان العرب وجدت فى أساليبهم التى وضع النحو والصرف على أساسها أنهم أهانوا المرأة فيها ورفعوا شأن الرجل ،

---

(٥٨) ذكر الكاتب كلمة « بساطة » ويعنى بها أنها مرادفة لكلمة « سهولة » أو كلمة « يسر » وليس الأمر كذلك لأن مادة «البسط» تعنى الاتساع ففى اللسان (بسط): « فى أسماء الله تعالى : الباسط ، هو الذى يبسط الرزق لعباده ويوسعه عليهم بجوده ورحمته ويبسط الأرواح فى الأجساد عند الحياة » وفيه : « وبسط الشىء : نشره » وفيه «وهذا فراش يبسطنى اذا كان سابغا ، وهذا فراش يبسطك اذا كان واسعا وهذا بساط يبسطك أى يسعك » وفيه « البسطة السعة » وانظر أساس البلاغة للزمخشرى ط دار الكتب المصرية ١٣٤١هـ /١٩٢٢م مادة (بسط) ٤٦/١ : ٤٧ • وعلى هذا فالتعبير بهذه الكلمة غير دقيق وأفضل منه أن يقال : بسهولة أو بيسر •

(٥٩) انظر مجلة العربى عدد ٣٦١ ص ١١٦ •

ويبدو أن العرب ما كانت تضع للمرأة مركزا عاليا كمركز الرجل ، وما كانت تجعل لها تقديرا اجتماعيا كما للرجل حتى جاء الاسلام فأعطى للمرأة حقوقا كما للرجل .. وحقوق المرأة فى الاسلام لها جوانب عديدة مقدسة فى القرآن الكريم وفى كتب الفقهاء »(٦٠) .

ثم قال : « مما يلاحظ فى جميع الاستعمالات اللفظية التى وضع النحو والصرف على أساسها أنها تضع المؤنث العاقل وغير العاقل دون المذكر العاقل وغير العاقل ، وأن المذكر عندهم مقدم على المؤنث فى كثير من أساليبهم .. فمن ذلك نجدهم فى المثنيات التى اصطلحوا عليها قد اختاروا لفظ المذكر دون المؤنث فجعلوا لفظ المثنى مذكرا ، وقد علل النحويون هذه الظاهرة بتعاليل واهية منها قولهم : المثنى على التغليب، وذكروا لهذا شواهد مختلفة ، وكلها أدخلوها فى قاعدة التغليب ، وهذه القاعدة لم تكن الا من صنع أفكار النحاة ولكن الحقيقة فى المثنيات التى اشتملت على مذكر ومؤنث واختيار لفظ المذكر فيها دون المؤنث انما هو لشرف المذكر عندهم ، وتقدمه على المؤنث ، وليس للتغليب شأن فى تقديم المذكر على المؤنث ، ولماذا كان التغليب فى جانب المذكر ، ولم يكن فى جانب المؤنث أى لماذا لم يختاروا فى تغليبهم تلك الظاهرة أن يكون المؤنث متغلبا على المذكر »(٦١) ؟

ثم بدأ الكاتب يذكر أمثلة للمثنيات التى اجتمع فيها المذكر والمؤنث وكان التغليب للمذكر تحت عنوان : « المثنيات الاصطلاحية » وقد بلغت الأمثلة التى ذكرها ثلاثين مثالا(٦٢) ومن هذه الأمثلة : تثنية «الشمس والقمر » فقد قالوا : قمران ، ولم يقولوا : شمسان والقمر هو جزء

---

(٦٠) مجلة العربى العدد ٣٦١ ص ١١٦ : ١١٧ .
(٦١) انظر مجلة العربى ص ١١٧ .
(٦٢) انظر مجلة العربى ص ١١٧ : ١١٨ .

من الشمس ، والقوة والنور والحرارة وغيرها كلها من الشمس،والقمر صخور وأحجار لا ماء ولا هواء ولا جو ، فالاختيار انمـا هو بسبب تأنيث الشمس(٦٣) .

ومنها : « وقالوا فى تثنية (دجلة والفرات) : فراتان ولم يقولوا : دجلتان وذلك لمراعاة التذكير والاهتمام به دون التأنيث »(٦٤) .

ومنها : « وقالوا : المصران للكوفة والبصرة فاختاروا لفظا مذكرا للمثنى وتركوا الاسمين المؤنثين »(٦٥) .

ومنها : « وقالوا فى مسـجد مكة ومسجد المدينة : المسـجدان ، فاختاروا الاسم المذكر (مسجد) وتركوا المضاف اليه (مكة والمدينة) ولا لمحوا اليهما »(٦٦) .

ثم قال فى نهاية ذكره لهذه الأمثلة : « هذا نموذج من ألفاظ المثنى التى اختير فيها المذكر وأهمل المؤنث ، ولا معنى «للتغليب» الذى علل النحاة به هذه المثنيات،وما ذكرناه من اختيار المذكر لمكانته المقدمة على المؤنث هو واقع الاسلوب الكلامى عندهم فى تقديرهم المذكر واحتقارهم المؤنث »(٦٧) .

أرأيت كيف بنى الكاتب مقاله على الأساسين السابقين وهما :

١ ــ اهانة العرب واحتقارهم للمرأة فى لغتهم ورفع شأن الرجل « المذكر » .

---

(٦٣) انظر مجلة العربى ص ١١٧ .
(٦٤) المرجع السابق نفسه .
(٦٥) المرجع السابق نفسه .
(٦٦) المرجع السابق نفسه .
(٦٧) انظر مجلة العربى ص ١١٨ .

٢ ــ انكار قاعدة « التغليب » التى هى سنة من سنن العرب ؟

ثم أرأيت مدى اصراره على ذلك من خلال الأمثلة التى ســقتها اليك مأخوذة من أمثلته التى ذكرها فى المقال ؟

ولم يقف الأمر عند حد انكاره لقاعدة « التغليب » العربية ، وانما تعداه الى ذكر بعض الملاحظات الأخرى التى غلب فيهــا المذكر على المؤنث ــ فى لغة العرب ــ لأمر رجعه الى اهانة العرب للمؤنث «المرأة» واحتقارهم لها ، ورفع شأن « المذكر » الرجــل ، وسأذكر لك ــ أخى القارىء المتدبر ــ ما قاله الكاتب ملخصا حتى تكون على علم به :

قال الكاتب : « ومما يلاحظ فى تقديم المذكر على المؤنث أن علامة جمع المذكر العــاقل المرفوع الواو والنون فى مثــل : محمد نقــول : محمدون ، مرفوعا ، وصفة جمع المذكر العاقل الواو والنون أيضا مثل : فاضل وفاضلون ، وهذه العلامة ــ الواو والنون ــ لا يجمع بهــا الا المذكر العاقل أو صــفته فلا يقال لكلمــة : ديك ــ مثلا ــ : ديكــون أو أسد : أسدون بينما نجد أن علامة جمع المؤنث السالم العاقل هى : الألف والتاء ، ففى مثل : هند تجمع على : هندات ، وفاضلة : فاضلات، وهذه العلامة يمكن ن يجمع بها غير المؤنث العاقل مثل : دجاجة فانها تجمع على : دجاجات ، وشاهق : شاهقات ، وورقة : رقات ، وحمارة : حمارات(٦٨) ، ثم يقول فى نهاية هذه الملاحظة : « أليس هذا ابتذالا فى تقدير المؤنث العاقل »(٦٩) ؟

ثم ذكر ملاحظة أخرى ملخصها : أن «نون النسوة» التى هى علامة للجمع المؤنث فى نحو : البنات يدرسن ، والنساء سافرن ، ويا أيتهــا

---

(٦٨) انظر مجلة العربى ص ١١٨ .

(٦٩) المرجع السابق نفسه .

الجاهلات تعلمن ، ليست مختصة بالنسوة أى بالمؤنثات العـاقلات بل تأتى لغير العقلاء من الحيوان مثـل : الحمامات طرن ، وكما جـاء فى قـول المتنبى :

لياليَ بعـد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل
بين لى البدر الذى لا أريده ويخفين بدرا ما اليه سبيل

فالنون التى يسمونها : نون النسوة،أو نون الاناث فى فعلى(يبين) و (يخفين) تعود على غير العاقل وهى (الليالى) فكان الأجدر بهذه النون أن تسمى : ضمير المؤنث لا ضمير النسوة(٧٠) .

ويذكر أيضا « ياء المخاطبة » التى يخاطب بها المؤنث العاقل مثل : اعلمى واكتبى وافهمى وقال انها تكون أيضا لخطاب غير العاقل كقوله تعالى : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا »(٧١) ثم قال : « فالمؤنث العاقل لا ينفرد وحده بعلامته بل يشترك فيها غير العاقل المؤنث »(٧٢) .

ثم ذكر ملاحظة أخرى تضاف الى الملاحظات السابقة ملخصها : أن التنوين الذى يسميه النحـويون : الصرف يختص بالمذكر أى مذكر كان عاقلا أو غير عاقل ، وأن هذا التنوين فيه دلالة على قوة الكلمـة ومتانتها فنقول ــ مثلا ــ فى كلمة (محمد) : محمد ومحمدا ومحمد ، وفى كلمة (كتاب) : كتاب وكتابا وكتاب ، وهذا التنوين الذى يدل على القوة ، والاعراب الكامل فى الكلمة قد أبعد عن المؤنث العاقل وحـرم منه ، فالعرب لا تنون الاسم المؤنث العـاقل مثل : فاطمة وافتخـار

---

(٧٠) مجلة العربى ص ١١٨ .
(٧١) من الآية ٦٨ من سورة النحل .
(٧٢) انظر مجلة العربى ص ١١٨ .

وأسماء ، لأن العاقل المؤنث عندهم ضعيف هزيل لا يستحق ما يستحقه المذكر من علامة القوة والمتانة ، وقد ذكر أن تعليل النحويين بأنه داخل فى باب « الممنوع من الصرف » بأنه خلاف الواقع(٧٣) .

ثم أخذ يقوى ويدعم هذه الملاحظة فقال : « ومما يضاف الى حرمان المؤنث العاقل من التنوين أن العرب جعلوا اعراب المؤنث العاقل غير كامل ، فنطقوا به مضموما ومفتوحا فحسب،ولم ينطقوا به مكسورا فيقولون — مثلا — حضرت عواطف — بالضم دون تنوين ، وشاهدت عواطف — بالفتح دون تنوين — وسلمت على عواطف — بالفتح دون تنوين »(٧٤) .

وقد علل الكاتب الاضافة السابقة بقوله : « وهنا يمكن أن نقول : لما كانت المرأة فى مركز ثانوى فقد جردوا أسماء الأعلام المؤنثة من العقلاء عن التنوين ونقصوا فيها حركات الاعراب فجعلوها حركتين ، واختاروا الفتح دون الكسر لتخفيف وطأة الاسم الثقيل على الرجل ذاك لأن المرأة ثقيلة فى نظرهم والكسر ثقيل ، وثقيل واحد خير من ثقيلين »(٧٥) .

ثم ذكر أن العرب فضلوا المؤنث الحيوان على المؤنث الانسان فنونوه ولذا قالوا :

دجاجة — بالتنوين — بخلاف ما اذا سميت امرأة باسم «دجاجة»

---

(٧٣) المرجع السابق نفسه .
(٧٤) المرجع السابق نفسه .
(٧٥) انظر مجلة العربى ص ١١٨ : ١١٩ .

فانها تمنع من الصرف لأنها أصبحت اسم علم لمؤنث عاقل فالتحقت بانطباق الحكم عليها(٧٦) .

وبعد هذا الكلام السابق يطرح الشيخ الكاتب ـ سؤالا ـ وكأنه يثير به حمية المؤنث «المرأة» فيقول : «فلو قيل : لماذا لا يكون التنوين الذى تمتع به المذكر العاقل قد اشتركت معه الحيوانت والجمادات وغيرها ، والمرأة امتازت وحدها بهذا الحكم دون غيرها ، فمثلا يكون ذلك الامتياز فخرا للمرأة »(٧٧) ؟

ثم أجاب عن هذا التساؤل بنفسه فقال : « ويقال فى الجواب : ان حرمان المرأة من التنوين الذى هو دليل القوة والانطلاق لا فخر لها فيه،وتبقى كما هى محتقرة عند الرجل ، أما اشتراك غير العاقل من الحيوانات والجمادات بالتنوين فهذا ليس فخرا للمرأة ولا نقصا بالرجل ، فالعرب لكرههم المؤنث العاقل فضلوا عليه المذكر العاقل وغير العاقل فأعطوه التنوين ، وحرموه من المؤنث العاقل »(٧٨) .

وأخيرا وفى نهاية المقال ينقل الكاتب عن صاحب « أقرب الموارد » عن أبى زيد أنه قال : «سمعت الكلابين يقولون : رجل شجاع ولا توصف به المرأة ، وقالوا للنجم : كوكب ، وليس هناك : كوكبة ، وقالوا فى مفرد نجوم : نجم لا نجمة ، ولا توجد نجمة بمعنى كوكب »(٧٩) .

ونقل أيضا عن الشرتونى فى « أقرب الموارد » قوله : « يقول العرب : ثوب جديد ، وجبة جديد،ولا يجوز : جديذة ، ولو كان (فعيل)

---

(٧٦) انظر مجلة العربى ص ١١٩ .
(٧٧) المرجع السابق نفسه .
(٧٨) انظر مجلة العربى ص ١١٩ .
(٧٩) المرجع السابق نفسه .

ـ كما يقولون ـ يستوى فيه المذكر والمؤنث لما قال : ولا يجوز جديدة » (٨٠)

هذا ما جاء بمقال الكاتب والباحث اللغوى منشورا على صفحات مجلة العربى الكويتية فى عددها الحادى والستين بعد المائة الثالثة ديسمبر ١٩٨٨م .. وسوف أتولى الرد عليه ـ بعون الله وتوفيقه ـ اجمالا وتفصيلا فأقول :

ان الكاتب بما تضمنه مقاله أو مؤلفه عموما(٨١) قد كان متجنيا على المرأة وعلى اللغة العربية وعلى القرآن الكريم وعلى السنة النبوية المطهرة وعلى النحاة والمفسرين .

١ ـ أما جنايته على « المرأة » فقد جعلها مهانة محتقرة فى نظر العربى ... وان كان هذا خلاف الواقع العربى الذى تغنى فيه الرجل بالمرأة وجعلها فى مقدمة قصائده .. وكانت مصدر الهامه الشعرى .. فوجدناها ممتزجة بأشعارهم .. مجسدة من خلال أجمل وأروع صورة يرسمها العربى بكلماته وعباراته التى تحمل القوة والمتانة كما تحمل الرقة والعذوبة الصافية .. ومن منا لم يعرف قدر « المرأة » فى الأدب العربى القديم ؟ ان المرأة العربية كانت ولاتزال تمثل نصف المجتمع .. ولا يستطيع أحد أن ينكر دور المرأة فى الأسرة والمجتمع العربى ... فالمرأة هى : الأم والأخت والزوجة والبنت والعمة والخالة ... فكيف هانها العرب واحتقروها ؟ ! نعم المرأة بحكم طبيعتها

---

(٨٠) المرجع السابق نفسه .

(٨١) لقد ذكر الكاتب أن هذا الموضوع الذى ضمنه هذا المقال هو جزء من عشرات المواضيع التى اشتمل عليها المؤلف « المرأة فى قواعد النحو والصرف » وذكر أنه معدللطبع . انظر مجلةالعربى ص ١١٧ .

ويحكم الفطرة التى فطرها الخالق عليها ضعيفة وهذا لا يعنى أنها مهانة وحقيرة .. ولا ينكر أحد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق المذكر وجعل له صفات خاصة به .. كما أنه خلق المؤنث وجعل له صفات خاصة به .. كما أنه جل وعلا جعل صفات مشتركة بين المذكر والمؤنث وان كانت غالبة فى المذكر وهذا بحكم الفطرة ولا دخل للمذكر فيه .. ولنحتكم الى كتب اللغة العربية التى استقينا منها جميعا طبيعة قواعدها وسر جمالها لنتعرف على صفات المذكر والمؤنث بعيدا عن التجنى والتحير فى المذكر والمؤنث للفراء قال : « وأما الهاء فلها ضروب تقع فيها ، فأول ذلك قولهم للرجل : أنت جالس ، وللمرأة : أنت جالسة ، فالهاء ههنا أدخلت للتأنيث،لا يكون غيره ، والقياس فيه مستمر أن يفرق بين الفعل المذكر والمؤنث بالهاء ، الا أن العرب قالت : امرأة حائض وطاهر ، وطامث ، وطالق ، وشاة حامل ، وناقة عائذ ـ للتى عاذ بها ولدها،فلم يدخلوا فيهن الهاء »(٨٢)، ثم علل ذلك بقوله : « وانما دعاهم الى ذلك أن هذا وصف لا حظ فيه للذكر ، وانما هو خاص للمؤنث ، فلم يحتاجوا الى الهاء ، لأنها انما أدخلت فى : قائمة وجالسة لتفرق بين فعل الأنثى والذكر ، فلما لم يكن للذكر فى الحيض والطمث وما ذكرنا حظ لم يحتاجوا الى فرق »(٨٣).

وفى موضع آخر قال : «فان قال قائل : أفرأيت قول العرب : أميرنا امرأة ، وفلانة وصى بنى فلان ، ووكيل فلان ، هل ترى هذا من المصروف »(٨٤) ؟

---

(٨٢) انظر المذكر والمؤنث للفراء ص ٥٨ تحقيق د. رمضان عبدالتواب ط . دار التراث ١٩٧٥م.

(٨٣) المرجع السابق نفسه .

(٨٤) أى المصروف عن جهة (مفعول) الى (فعيل) مما يستوى فيه المذكر والمؤنث .

قلت : لا ، انما ذكر هذا لأنه انما يكون فى الرجال دون النســاء أكثر ما يكون ، فلما احتاجوا اليه فى النســاء أجروه على الأكثــر من موضــعيه »(٨٥) .

ثم قال : « وتقول : مؤذن بنى فلان امرأة ، وشهوده نساء،وفلانة شاهد له ، لأن الشهادات والأذان وما أشبهه انما يكون للرجال وهو فى النساء قليــل »(٨٦) .

أرأيت الطبيعة الفطرية التى عليها الجنسان البشريان من واقــع لغة العــرب ؟ !

فان قال الكاتب الباحث : ان العربى القــديم «الجاهلى» قتــل الأنثى فى مهدها كما هو مشار اليه فى قوله عز وجل «ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم »(٨٧) وفى قوله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم »(٨٨) وكما هو معروف من خلال كتب التاريخ القديم .. أقول : ان هذا قدر مشترك بين الأنثى والذكر بدليل قوله تعالى (أولادكم) فانه يشمل الأنثى والذكر ... نعم ان طبيعة الحياة التى كان يعيشــها العربى القديم دفعتــه الى تفضيل الابن « الذكر » على البنت « الأنثى » وذلك راجع الى الصفات الفطرية التى جبل عليها الذكر — ولعل هذا هو السبب الذى دفع امرأة عمران — حين وضعت السيدة مريم — عليها السلام — أن تقول كما

---

(٨٥) انظر المذكر والمؤنث ص ٦١ .

(٨٦) المرجع السابق نفسه .

(٨٧) من الآية ٣١ من سورة الاسراء .

(٨٨) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام .

حكى القرآن الكريم على لسانها « انى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى »(٨٩) ٠

ومن هنا أقول فى ثقة واطمئنان : لقد كان الكاتب الباحث متجنيا على المرأة ــ مصدر حياة الرجل ــ حين قال : ان العرب أهانوا المرأة فى لغتهم ٠٠ فما كانت المرأة مهانة ومحتقرة فى نظر العربى بقدر ما هى مهانة ومحتقرة اليوم فى نظر الكاتب والباحث الكبير ٠٠٠ وان المرأة فى عالمنا اليوم لو علمت بما ذكره الكاتب لندمت على أنها تعيش على أرض العروبة ٠٠ وعلى أنها تتكلم بلغة لاتزال تهينها وتحتقرها ٠٠ هى اللغة العربية ٠

٢ ــ وأما جنايته على اللغة العربية ٠٠ فالباحث جعلها لغة هزيلة لأنها بنيت على هوى نفسى ومزاج خاص ٠٠ وحاشا لله أن تكون لغة العروبة والاسلام هزيلة ٠٠ وحاشا لله أن تكون لغه (محمد ــ ﷺ ــ) لغة هزيلة فهو القائل « أحبوا العرب لثلاث لأنى عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى »(٩٠) ٠٠ وكيف تكون اللغة العربية التى صاغ العربى الجاهلى منها أروع أقواله ، ونظم بها أجمل أشعاره ٠٠٠ ذلك الشعر الذى قدره الاسلام وأعطاه حقه من التكريم والاجلال ٠٠ فهو ديوان العرب ، يقيدون فيه أفكارهم ، ويسجلون فى كلماته نبضات قلوبهم وخواطر نفوسهم وحرارة عواطفهم،ولا أدل على ذلك من هذه

---

(٨٩) من الآية ٣٦ من سورة آل عمران ٠

(٩٠) انظر كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوى ٥٥٨ تصحيح وتعليق الأستاذ أحمد الطلاس ط ٠ دار التراث ٠

الرعاية النبوية التى أحاطت بموكب الشعر العربى ، فقد كان النبى عليه السلام يعجبه الشعر ويطرب لحكمه ويمدح فيثيب عليه(٩١) .

واننى أتساءل كيف يمدح نبى الاسلام — ﷺ — الشعر العربى ويعجب به ويطرب لحكمه مع أنه مكتوب بهذه اللغة التى بنيت على اهانة المرأة واحتقارها ؟ !

وماذا يقول الكاتب فى القول المأثور عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : « الشعر ديوان العرب فاذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه »(٩٢) .

وماذا يقول الشيخ الباحث فى قول الرسول — ﷺ — : «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ، وأنى نشأت فى بنى سعد بن بكر »(٩٣) .

وماذا يقول الشيخ الباحث لمن يذهب(٩٤) الى أن لغة العرب توقيف من الله سبحانه وتعالى مستدلا بقوله جل ثناؤه « وعلم آدم الأسماء كلها »(٩٥) .

---

(٩١) انظر كتاب شواهد سيبويه من المعلقات فى ميزان النقد ص ١٦ تأليف د. عبد العال سالم مكرم ط أولى مؤسسة الرسالة — بيروت ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م .

(٩٢) المرجع السابق ص ٤٢ والاتقان للسيوطى٢/٦٧ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط الهيئة المصرية العامة سنة ١٩٧٤م .

(٩٣) انظر الصاحبى لابن فارس ص ٤٠١ .

(٩٤) ذهب الى ذلك أحمد بن فارس فى كتابه الصاحبى ص ٦ ، ٧. والأشعرى انظر الاقتراح فى علم أصول النحو للسيوطى ص ٣١ تحقيق د. أحمد قاسم .

(٩٥) من الآية ٣١ من سورة البقرة .

أيجرؤ على أن يقول أنها لغة العرب وأنهم أهانوا المرأة فيها ورفعوا شأن الرجل ؟ وبالتأكيد لا يستطيع .. ولن يجرؤ .

٣ ــ وما جنايته على القرآن الكريم فجناية جسيمة وخطيرة... فكلنا يعلم أنه دستور المسلمين .. وأنه جاء ليصحح المفاهيم وينقذ العقول من الضلال الذى احتل أكبر مساحة منها ــ هذا القرآن العظيم الذى نزل لهداية الانسان واخراجه من ظلمات الكفر الى نور الايمان أنزله الله بلغه العرب ــ وعلى وجه الخصوص بلغة قريش ــ لأنها أفصح لغات العرب كما جاء فى كتاب « الصاحبى » لأحمد بن فارس « أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، واصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب ، واصطفاهم،واختار منهم نبى الرحمة محمدا ــ ﷺ ــ »(٩٦) .

أليست هذه اللغة التى نزل بها القرآن الكريم لغة العرب التى حكم عليها الكاتب بأنها أهانت المرأة ؟ ولا ننسى أن الكاتب الكبير ذكر فى مقدمة مقاله أن الاسلام جاء فأعطى للمرأة حقوقا كما للرجل ، وقال أيضا : ان حقوق المرأة فى الاسلام لها جوانب عديدة مقدسة فى القرآن الكريم وفى كتب الفقهاء(٩٧) .

ألم يعلم الشيخ الكاتب ــ وأظنه يعلم ــ أن معظم آيات الكتاب العزيز التى فيها ذكر للرجل والمرأة معا جاءت مغلبة للرجل على المرأة (المذكر على المؤنث) ؟ وسوف أسوق على هذه الصفحات بعض الآيات

---

(٩٦) انظر الصاحبى ص ٣٣ .

(٩٧) انظر مجلة العربى العدد ٣٦١ ص ١١٧ .

التى تعد نموذجا للتغليب — أعنى تغليب المذكر على المؤنث — اضافة الى ما ذكرناه آنفا مما نص عليه العلماء(٩٨) :

١ — قال الله تعالى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم »(٩٩) وأقول للشيخ الكاتب : لمن الخطاب فى الآية الكريمة للذكور أم للاناث (للرجال أم للنساء) ؟ بالقطع الخطاب كما هو ظاهر للذكور وتدخل النساء ضمنا على قاعدة التغليب العربية — فتقوى الله قدر مشترك بين الرجل والمرأة وان كان فى الرجال أكثر بدليل الخطاب فى الآية .

٢ — قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون »(١٠٠) .

وأقول : فى حق من هذه الآية الكريمة ؟ انها فى حق الشهيد وهو الذى يقتل فى سبيل اعلاء كلمة الله .. وأيضا فى حق من تقتل فى سبيل اعلاء كلمة الله .. ولكن لما كانت الشهادة فى جانب الرجال أكثر وهى فى النساء قليل جاءت الآية بلفظ المذكر..أليس هذا تغليبا لجانب المذكر على جانب المؤنث ؟ ...

٣ — قوله تعالى : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقت والصائمين والصائمات والحافظين فروجهن والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما »(١٠١) .

---

(٩٨) انظر ص من هذا البحث .
(٩٩) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .
(١٠٠) آية ١٦٩ من سورة آل عمران .
(١٠١) آية ٣٥ من سورة الأحزاب

وأقول هذه آية من كتاب رب العالمين كفيلة بالرد على ما زعمه الكاتب ... لقد جاءت الآية بصفات مشتركة بين الجنسين البشريين — المذكر والمؤنث — الا أن المقدم فيهما جماعة الذكور على جماعة الاناث ... ثم جاء الخبر مشتملا على ضمير المذكرين (لهم) وما ذلك الا لتغليب المذكر على المؤنث تبعا لقاعدة التغليب العربية الأصيلة ، ولعل هذا ما يشير اليه معنى الحديث النبوى الشريف الذى ذكره العلامة أبو السعود فى تفسيره عقب تفسير هذه الآية الكريمة قال الشيخ أبو السعود : « روى أن أزواج النبى — ﷺ — ورضى عنهن قلن : يا رسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف أن لا تقبل منا طاعة ، فنزلت »(١٠٢) وقد روى العلامة ابن كثير هذا الحديث عقب الآية فى تفسيره(١٠٣) بطرق مختلفة مؤداها ما جاء فى رواية العلامة أبى السعود • وسأكتفى بهذه الآيات الثلاث وان كان القرآن الكريم مليئا بمثلها مما يدل على أن التغليب سنة من سنن العرب •

وأقول للشيخ الباحث : أليس هذا هو القرآن الذى جاء فأعطى للمرأة حقوقها ؟ ثم ألم يكن فى مقدمة هذه الحقوق أن يجنبها تلك الاهانة التى لحقتها من قواعد اللغة العربية التى نزل بها ؟

اننا اذا سلمنا بما زعمه الشيخ الكاتب بأن العرب أهانوا المرأة فى لغتهم لسلمنا بالضرورة بأن القرآن الكريم أهان المرأة أيضا لأنه نزل بلغتهم وهذه جناية خطيرة على القرآن الكريم وعلى لغته •• ومما لاشك فيه ولا مراء أن القرآن الكريم منزه عن هذه الأباطيل •

---

(١٠٢) انظر تفسير أبى السعود ٧/١٠٤ •

(١٠٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٤٨٧ ط مكتبة دار التراث •

٤ ــ وأما جنايته على الحديث النبوى الشريف فواضحة جلية لأن قائله منسوب الى أفصح قبائل العــرب وهى قبيلة قريش التى شرفها به ــ ﷺ ــ كما شرفها بأن اختار لها أفصح اللغات .. ولاشك أن ما جاء به الهدى النبوى الشريف فيه تغليب للمذكر على المؤنث ــ والتسليم بما زعمه الكاتب من أن العرب أهانوا المرأة فى قواعد النحــو والصرف تسليم بوجود ذلك فى الحديث النبوى الشريف .. وحاشا لله أن يكون فى حديث المصطفى ﷺ اهانة واحتقار للمرأة التى أعطى لها حقوقها كاملة كما أعطى للرجل .

٥ ــ وأما جناية الكاتب على النحاة والمفسرين فجناية لن تغفــر حيث انه اتهمهم جميعا بأنهم لم يفطنوا الى ما فطن اليه عقله واهتدت اليه بصيرته من أن العرب أهانوا المرأة فى لغتهم ورفعوا شأن الرجل.. واننى أقول له : منذ أن قرأت فى كتب النحاة والمفسرين لم أجد أحــدا منهم أنكر أن التغليب سنة من سنن العرب..كما اننى لم أعلم عن واحد منهم أهان المرأة بمثل ما أهنتها به .

ومن هنا فان ما زعمته فيــه جناية كبيرة وجســيمة على النحــاة والمفسرين الذين جاهدوا واجتهدوا حتى وصلوا الى أسرار هذه اللغة ــ أعنى اللغة العربية ــ ثم قدموها لنا فى ثوب لائق بها .

رد مباشر على ملاحظات الكاتب :

لقد ذكر الكاتب عدة ملاحظات يعضد بها ما ذهب اليه فى قضيته، وقد أوردت هذه الملاحظات على صفحات هذا البحث حتى تكون ــ أخى القارىء على معرفة بها(١٠٤) .

---

(١٠٤) انظر ما سبق من هذا البحث .

واننى اذ أوضحت مدى جناية « الكاتب » على المرأة وعلى اللغة العربية وعلى القرآن الكريم وعلى الحديث الشريف وعلى النحاة والمفسرين سوف أقوم بالرد على تلك الملاحظات بطريقة مباشرة حتى نعلم كيف ارتكب هذه الجنايات •

الملاحظة الأولى :

لقد لاحظ الكاتب ــ كما سبق أن ذكرت ــ أن هناك مثنيات اصطلاحية اجتمع فيها المذكر والمؤنث واختاروا لها لفظ المذكر لتقديرهم اياه واحتقارهم المؤنث واهانته وليس للتغليب كما ذكر لنحاة •

وأقول : ان الناظر فى هذه المثنيات يدرك ــ من غير معاناة أو مشقة ــ أن الكاتب قد جانبه الصواب فى تحقيق هدفه ودعم قضيته ••• بل ان أغلبها كان حجة عليه لا حجة له واليك البيان •

١ ــ تثنية « الشمس والقمر » فقد قالوا : قمران ولم يقولوا : شمسان ، والقمر هو جزء من الشمس والقوة والنور والحرارة وغيرها كلها من الشمس ، والقمر صخور وأحجار لا ماء ولا هواء ، ولا جو ، فالاختيار انما هو بسبب تأنيث الشمس • هكذا قال الكاتب •• وأقول له : ان هذه التثنية مردها الى قاعدة التغليب العربية •• وأن هذه القاعدة تسير وفق ضوابط ثابتة وهى أن المذكر يغلب على المؤنث بحكم الفطرة التى فطر عليها كل منهما دون النظر الى مقارنة الألفاظ بعضها ببعض •• فلا ينكر أحد أن « الشمس » أكبر وأقوى من القمر ••• ولكن جنس « الشمس » وهو المؤنث أضعف من جنس « القمر » وهو المذكر ومن هنا كان التغليب •

٢ ــ وقالوا عن الشمس والقمر : « الأزهران » والأزهر لفظ مذكر ••• هكذا قال ••• وأقول له : أين التغليب هنا والتثنية للفظ مذكر وهو

« أزهر » ؟ انها تثنية قياسية بعيدة عن أى معنى تذهب اليه .. وانما هو تمحل ظاهر وتمحك واضح .

٣ ــ وقالوا عنهما ــ أى عن الشمس والقمر ــ الدائبان والدائب مذكر ... وأقول له : ان هذه التثنية جاءت ــ أيضا ــ على القياس فى تثنية المذكر وليس فيها تغليب شىء على شىء .

٤ ــ وقالوا فى تثنية دجلة والفرات : « فراتان ولم يقولوا : دجلتان وذلك لمراعاة التذكير والاهتمام به دون التأنيث .. وأقول : ان هذا المثال ليس فيه شاهد لما زعمه المؤلف ، فقد صرح ابن منظور فى لسان العرب(١٠٥) أن قولهم : فراتان يقال فى تثنية : الفرات ودجيل ... وعلى هذا فالتثنية على بابها لأنها للفظين مذكرين وليس للتأنيث وجود فيها .. فكيف يقول : ان فيها تقديما للمذكر على المؤنث ؟

٥ ــ وقالوا للزوج والزوجة : زوجان ولم قولوا : زوجتان لطرد المؤنث واختيار المذكر .. وأقول : ان هذا المثال ليس فيه طرد للمؤنث واختيار للمذكر ــ كما زعم الكاتب ــ وانما فيه استعمال للفظ «زوج» على اللغة الفصحى عند العلماء وهى لغة أهل الحجاز(١٠٦) حيث انهم يقولون للمذكر والمؤنث : زوج وبذلك ورد فى القرآن الكريم قال تعالى (أمسك عليك زوجك)(١٠٧) وعلى ذلك فالمثال ليس فيه طرد للمؤنث

---

(١٠٥) انظر لسان العرب مادة (فرت) ط . دار المعارف .

(١٠٦) انظر المذكر والمؤنث للفراء ص ٩٥ ، ١٠٩ والمذكر والمؤنث لابن التسترى الكاتب تحقيق الدكتور أحمد عبد المجيد هريدى ط أولى ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م الخانجى بالقاهرة ودار الرفاعى بالرياض ص ٨٠ .

(١٠٧) من الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

واختيار للمذكر لأن التثنية على بابها ... وربما يقول الكاتب : اما قصدت لغة أهل نجد الذين يفرقون بين لفظ «زوج» ولفظ «زوجة» فى استعمالاتهم فانهم يقولون للمرأة : زوجة(١٠٨) .. أقول له : ان العبرة بالاستعمال الفصيح عند العلماء .. ويكفينا استعمال القرآن الكريم له .

٦ ــ وقالوا : الأسمران للماء والحنطة فاختاروا للتثنية اسما مذكرا وهو : أسمر .. وأقول : ان التثنية هنا جاءت ــ أيضا ــ على القياس وليس منها اختيار للمذكر .. وربما كان اختيارهم للفظ وهو «أسمر» لخفته دون النظر الى تذكير أو تأنيث وهذا هو الأفضل .

٧ ــ وقالوا : العراقان للكوفة والبصرة ... وأقول : ان هذا المثال ليس فيه اختيار للمذكر ، وانما فيه اختيار للفظ خفيف يشمل المدينتين معا وهذا أفضل من قولهم : كوفتان أو بصرتان لعدم وجود مزية لأحدهما على الأخرى .

٨ ــ وقالوا : البلدان للكوفة والبصرة أيضا ... وهذا فى الرد عليه كالسابق .

٩ ــ وقالوا : الأبوان للأب والأم ولم يقولوا : أمان ، والأم صاحبة الحمل والتربية ... الخ .

وهذا مما لاشك فيه .. ولكن ألم تعلم أن هذه الأمور تشير الى الضعف والوهن ؟ وهذا هو الأساس الذى بنيت عليه قاعدة التغليب العربية ... ثم ألم يكفك أن يكون هذا من استعمالات القرآن الكريم فهو القائل «ولأبويه لكل واحد منهما السدس» (١٠٩) ثم ما رأى الشيخ

---

(١٠٨) انظر المذكر والمؤنث للفراء ص ٩٥ ولابن التسترى ص ٨٠

(١٠٩) من الآية ١١ من سورة النساء .

الكاتب في قول الله تبارك وتعالى « وبالوالدين احسانا »(١١٠) ؟ أتقول أيضا : ان هذا من باب اختيار المذكر وطرد المؤنث ؟؟ بالطبع لا ولن تستطيع •• وأقول لك : ان العرف اللغوى جرى على أننا نقول لكل من الوالد والوالدة : والدان كما أننا نقول للأب والأم : أبوان وليس كما زعمت •

١٠ ــ وقالوا : الطرفان للأب والأم ــ وهذا ليس فيه دليل على تقديم المذكر على المؤنث •• وانما هو تثنية للفظ مذكر وهو « طرف » على القياس المعروف ــ ثم انهم لو لم يقولوا بذلك فماذا كان عليهم أن يقولوا ؟؟

١١ ــ وقالوا : الظئران للأب والأم أيضا ــ يقال : امرأة ظئر وهى التى تعطف على الولد ويقال : رجل ظئر أى : يتخذ ولد غيره لنفسه ••• وأقول : ان هذا حجة عليك لا لك لأن اللفظ كما هو واضح يستوى فيه المذكر والمؤنث وليس له تثنية الا قولهم : ظئران ••• وفى تسويتهم بين المذكر والمؤنث دليل آخر على ابطال زعمك ودحض افترائك •

١٢ ــ وقالوا : الحرمان لمكة والمدينة ففضلوا أن يكون المثنى بلفظ مذكر غيرهما ــ وهذا أيضا ليس فيه دليل لأنهم أرادوا أن يضعوا لفظ يشمل المدينتين معا مع مراعاة الدلالة على قدسيتهما وحرمتهما وهذا لا يتحقق الا بقولهم : الحرمان وليس فيه تفضيل للمذكر على المؤنث •

١٣ ــ وقالوا : المتحابان للمحب والمحبة ولم يقولوا : المتحابتان •

١٤ ــ وقالوا : متعاشقان ولم يقولوا : متعاشقتان •

---

(١١٠) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام ومن الآية ٢٣ من سورة الاسراء •

١٥ ــ وقالوا : عشيقان ولم يقولوا : عشيقتان •

١٦ ــ وقالوا : حبيبان ولم يقولوا : حبيبتان •

وأقول : ان هذه المثنيات جاءت على القياس المتعارف عليه فى هذه الأمور •• فالمعروف أن الحب والعشق لا يكون فى الغالب الا بين ذكر وأنثى وكان لابد أن يغلب الذكر على الأنثى تحقيقا لقاعدة التغليب العربية •• كما أنهم لو قالوا : متحابتان ومتعاشقتان وعشيقتان وحبيبتان كما أراد الكاتب لتوهم أن ذلك بين أنثيين وفى ذلك مخالفة لما عليه عرف الناس •

١٧ ــ وقالوا : المصران للكوفة والبصرة فاختاروا لفظا مذكرا للمثنى وتركوا الاسمين المؤنثين •

وأقول : ليس فى هذا اختيار للفظ مذكر وانما هو اختيار للفظ يشير الى كبر حجم المدينتين ، فـ « المصر » معناه : المدينة الكبيرة ، واختيارهم للفظ يجمع بينهما أفضل من قولهم : الكوفتان أو البصرتان •

١٨ ــ وقالوا فى مسجد مكة ومسجد المدينة : المسجدان فاختاروا الاسم المذكر (مسجد) وتركوا المضاف اليه « مكة » و « المدينة » ولا لمحوا اليهما •• وأقول : ليس فى هذا اختيار للاسم المذكر لأنه موجود حقيقة ويفرض نفسه ــ ثم ان قولهم : المسجدان أخصر من قولهم : مسجدا مكة والمدينة وفيه من الخفة ما لا يخفى وليس فيه من قريب أو بعيد • ما يزعمه الكاتب •

١٩ ــ وقالوا : الآذانان للآذان والاقامة •• وأقول : ان هذه التثنية جاءت على القياس لأن الاقامة فى الحقيقة آذان فهما آذانان لا اقامتان •• فلو قيل : اقامتان لا يفهم منه الآذان والاقامة بقدر ما يفهم من قولهم : الآذانان وليس للتذكير والتأنيث مدخل فى ذلك •

٢٠ ــ وقالوا : الأمران لمرارة الفقر ومرارة الهموم ، وكلمة « مرارة » المؤنثة تركوها واختاروا للمثنى : أمر وهو مذكر •• وأقول : لم يكن الأمر مبنيا على اختيارهم الأخف فالأمران أخف من قولهم : المرارتان •• وشيء آخر وهو أن قولهم : الأمران عند اطلاقه يؤمن فيه اللبس بخلاف قولهم : المرارتان فربما التبس بتثنية : مرارة وهى التى بداخل جسد الانسان •

٢١ ــ وقالوا : دواليك فى تثنية : ومداولة ويريدون : مداولة بعد مداولة••وأقول : ان قولهم : واليك ليس تثنية لـ « مداولة ومداولة » وانما هو لفظ وضع من أول الأمر هكذا ثم انهم لما أرادوا تفسير معناه قالوا : يريدون مداولة بعد مداولة •• والا فتثنية «مداولة» القياسية : مداولتان لا : دواليك •• وعلى ذلك فالتمثيل به تمحل واضح وتمحك غير خفى •

٢٢ ــ وقالوا : الأحمقان فى تثنية حنظلة بن عامر وربيعة وكلا الاسمين مؤنثان تأنيثا لفظيا ، وكان هذا فى الجاهلية •• وأقول : ان التمحل ظاهر فى هذا المثال أيضا فان كلا الاسمين وان كان مؤنثا الا أن مسمى كل منهما مذكر والعبرة بالمسمى لا بالاسم وعلى هذا فقولهم : الأحمقان جاء على الأصل لأنه صفة لمذكرين لا لمؤنثين •

٢٣ ــ وقالوا : الأسودان للحية والعقرب ــ وأقول : ان «الحية» هنا معناها : الثعبان وعلى ذلك فالتثنية جاءت على الأصل من تغليب المذكر على المؤنث تحقيقا للقاعدة العربية الثابتة •

٢٤ ــ وقالوا : الحجران للذهب والفضة •• وهذه التثنية جاءت أيضا على القياس لأن كلا من الذهب والفضة حجر فأرادوا أن يجمعوا بينهما فى لفظ يشملهما فقالوا : الحجران وهذا أفضل من قولهم : الذهبان أو الفضتان وليس للتذكير والتأنيث مدخل فى ذلك •

٢٥ ــ وقالوا : النقدان للذهب والفضة أيضا ــ ويقال فى هذا ما قيل فى سابقه لأن الذهب والفضة كلاهما نقد فجمعوا بينهما فى لفظ يشملهما معا •

٢٦ ــ وقالوا : العصران للغداة والعشى •

٢٧ ــ وقالوا عن الغداة والعشى أيضا : الأبردان •

٢٨ ــ وقالوا : الصرعان للغداة والعشى أيضا •

وهذه الأمثلة الثلاثة ليس فيها دليل على اختيارهم المذكر وتركهم المؤنث بقدر ما فيها من اختيارهم للفظ يجمع بين الوقتين معا بدلا من أن يقولوا:الغداتان أو العشاءان اذ لايصح اطلاق أحدهما على الآخر •

٢٩ ــ وقالوا عن الموصل والجزيرة : الموصلان •• وأقول : ربما كان الاختيار هنا للأشهر والأخف من اللفظين لا لاختيار المذكر وطرد المؤنث •

٣٠ ــ وقالوا : الحسنيان للظفر والشهادة •• وهنا أقول : ان هذا المثال حجة عليك لا لك •• كما أنه يشير فى وضوح تام الى هذا التمحل الذى التزمته فى دعم قضيتك ــ ذلك أن قولهم : الحسنيان تثنية لـ « حسنى » وهى مؤنث « أحسن » فالتثنية مؤنثة للفظين مؤنثين وليس فيه اختيار للمذكر وطرد للمؤنث ــ كما زعمت ــ أرأيت كيف كنت متحملا •• وكنت متحاملا ؟؟

الملاحظة الثانية :

لقد لاحظ الكاتب أيضا ــ تعضيدا ودعما لما ذهب اليه ــ أن علامة جمع المذكر السالم العاقل فى حالة الرفع : الواو والنون •• وهذه العلامة لا يجمع بها غير العاقل فلا يقال فى جمع ديك : ديكون ، ولا فى

جمع أسد ، أسدون ، أما علامة جمع المؤنث السالم فهى : الألف والتاء، وهذه العلامة ليست خاصة بالمؤنث العاقل ، وانما يجمع بها أيضا غير العاقل من مختلف الأنواع والأجناس .. ثم قال الكاتب عقب هذه الملاحظة : « أليس هذا ابتذالا فى تقدير المؤنث العاقل »(١١١) ؟.

وأقول : ان هذا ليس ابتذالا فى تقدير المؤنث العاقل ... وانما هذه خصائص لغة لها ضوابطها وقواعدها ولم يقصد من ورائها اهانة المرأة أو احتقارها ... ثم لماذا يكون اشراك المؤنث غير العاقل مع المؤنث العاقل فى علامة الجمع ابتذالا فى تقدير المؤنث العاقل؟؟وما الذى يضير المؤنث العاقل فى أن يشترك معه غير العاقل ؟؟ لا شىء .

وأيضا من الذى قال ان علامة جمع المذكر السالم العاقل لا يجمع بها غير العاقل ؟ ألم تقرأ قول الله تبارك وتعالى : « الذين جعلوا القرآن عضين »(١١٢) وقوله جل ثناؤه « كلا ان كتاب الأبرار لفى عليين .. وما أدراك ما عليون »(١١٣) .. وقوله عز وجل « عن اليمين وعن الشمال عزين »(١١٤) .. لقد نص النحاة وأرباب هذه اللغة على أن كل اسم ثلاثى حذفت لامه وعوض عنها هاء التأنيث ولم يكسر يلحق بجمع المذكر السالم فيعرب بالواو والنون فى حالة الرفع،وبالياء والنون فى حالتى النصب والجر فيقال فى جمع سنة : سنون وسنين وفى عزة : عزون وعزين وفى ثبة : ثبون وثبين وفى عضة : عضون وعضين..وكلها لغير العاقل .. كما أنهم ألحقوا به : عليون — وهو اسم لأعلى الجنة — وكذلك : وابل قالوا فيه : وابلون وكلاهما لغير العاقل — أيصح أن

---

(١١١) انظر مجلة العربى ص ١١٨ .
(١١٢) آية ٩١ من سورة الحجر .
(١١٣) آية ١٨ وآية ١٩ من سورة المطففين .
(١١٤) آية ٣٧ من سورة المعارج.

نقول : ان ابتذال تقدير المذكر العاقل لأنه يشترك معه غير العـــاقل ؟؟ كلا لايصح وانما هذا يعضد ما ذهبنا اليه من أن هذه اللغة لها ضوابطها وقواعدها وليس لتقدير المذكر أو المؤنث شأن فى ذلك ــ وان ما ذهب اليه الكاتب تمحل لزعم باطل •

الملاحظة الثالثة :

كما لاحظ الشيخ الكاتب أن «نون النسوة» التى هى علامة للجمع المؤنث فى الأفعال ليست خاصة بالمؤنثات العاقلات بل تأتى أيضا لغير العقلاء من الحيوان وغيره ، ثم ذكر تعقيبا على هذه الملاحظة فقـــال : « فكان الأجدر بهذه النون أن تسمى ضمير المؤنث »(١١٥) •• ولست أدرى لم يكون هذا هو الأجدر ؟؟ هل لأن هذه التسمية تخـــرج المؤنث العاقل من الاشتراك مع المؤنث غير العاقل فيبعد عن الاهانة والاحتقار؟ كلا بل لابد من اشتراكهما فى هذه العلامة •• ثم لم لا نترك الأمـــور على طبيعتها ونقول : لما كان الغالب فى هذه النون اســـتعمالها للمؤنث العاقل ، والمؤنث العاقل ــ بالطبع ــ أفضل وأكرم من غير العاقل ــ سميت بنون النسوة ؟؟ أليس هذا أيضا تمحلا لزعم باطل •

الملاحظة الرابعـــة :

كما لاحظ الباحث أيضا أن « ياء المخاطبة » التى يخاطب بها المؤنث العاقل نحو : اعلمى لا يختص بها المؤنث العـــاقل وانما تكون أيضـــا لخطاب غير العاقل وقد استدل(١١٦) على ذلك بقوله تعالى : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا »(١١٧) • وأراد من وراء

---

(١١٥) انظر مجلة العربى ص ١١٨ •
(١١٦) انظر مجلة العربى ص ١١٨ •
(١١٧) من الآية ٦٨ من سورة النحل •

ذلك أن يقول : ان هذا ابتذال فى تقديرهم المؤنث العاقل ... وأقول : يكفينا فى الرد على هذه الملاحظة استعمال القرآن لهذه الياء فى خطاب المؤنث العاقل وغير العاقل .. بالاضافة الى أن هذا تمحل واضح كما سبق .

الملاحظة الخامسة :

وهذه الملاحظة هى الأخيرة من ملاحظات الشيخ الكاتب والتمحل فيها جلى وتلمس العيب فيها ظاهر .. فقد ذكر أن التنوين الذى يسميه النحويون : الصرف والذى فيه دلالة على قوة الكلمة ومتانتها قد اختص به المذكر أى مذكر كان عاقلا أو غير عاقل ، وأبعد عن المؤنث العاقل وحرم منه فالعرب كانت لا تنون الاسم المؤنث العاقل لأنه عندهم ضعيف هزيل لا يستحق ما يستحقه المذكر من علامة القوة والمتانة(١١٨) .

ومما زاد من تمحله انه ذكر أن تعليل النحويين بأن ذلك داخل فى باب : الممنوع من الصرف خلاف الواقع(١١٩) .

وقد زاد الأمر تمحلا حينما قال : « ومما يضاف الى حرمان المؤنث العاقل من التنوين أن العرب جعلوا اعراب المؤنث العاقل غير كامل فنطقوا به مضموما ومفتوحا فحسب ولم ينطقوا به مكسورا »(١٢٠) . ثم قال : « ثم انهم فضلوا المؤنث الحيوان مثل : دجاجة على المؤنث الانسان فنونوه وقالوا : دجاجة بالتنوين ، ولكن اذا سميت امرأة باسم دجاجة فانها تمنع من الصرف »(١٢١) .

---

(١١٨) انظر مجلة العربى ص ١١٨ .
(١١٩) المرجع السابق نفسه .
(١٢٠) انظر مجلة العربى ص ١١٩ .
(١٢١) المرجع السابق نفسه .

وأقول للشيخ الكاتب : ان هذا التنوين الذى حرم منه المؤنث العاقل حرم منه المذكر العاقل فى نحو : أحمد ويزيد وابراهيم واسماعيل أيجوز لنا أن نقول : ان فى هذا تحقيرا واهانة للمذكر ؟ بالطبع لا يجوز ثم الى جانب ذلك أقول : ان الاسم المؤنث العاقل الساكن الوسط نحو: هند ودعد يجوز فيه التنوين وتركه • كما هو معروف عن هذه اللغة — وبذلك يجوز لنا أن نقول عند تنوينه : انه قوى ومرفوع الشأن ، واذا لم ينون نقول : انه ضعيف هزيل مهان •• أيجوز هذا فى اسم واحد ؟! بالطبع لا يجوز •• وبالطبع لا يجوز أن نوافقك على ما ذهبت اليه •

وأيضا اذا كان العرب قد نطقوا بالاسم المؤنث العاقل مضموما ومفتوحا فحسب وجعلوا اعرابه غير كامل فكذلك صنعوا بالمذكر فى نحو: أحمد وعثمان واسماعيل •• أليس كذلك ؟!

وأقول للشيخ الباحث : لم كان تعليل النحويين بأن ذلك داخل فى باب الممنوع من الصرف خلاف الواقع ؟ أتريد أن تلغى بابا عربيا خالصا نطق به القرآن الكريم ونطقت به السنة النبوية المطهرة؟! أم ماذا تريد؟! انه تمحل واضح وتجن ظاهر •

ثم أبعد ذلك نقول : انهم فضلوا المؤنث الحيوان على المؤنث الانسان ؟ لا أدرى من أين أتت هذه الأفضلية والله سبحانه وتعالى يقول قرآنا باللغة نفسها (ولقد كرمنا بنى آدم)(١٢٢) أليس الأمر على التغليب لأنه يشمل البنين والبنات ؟!

وفى نهاية المقال عضد الكاتب فكرته بما جاء فى كتب اللغة فنقل عن « أقرب الموارد » ما يشير الى اهانة المرأة ورفع شأن الرجل •• وسأكتفى بذكر مثال واحد مما نقله يبرز شدة تمحله لما ذهب اليه •

---

(١٢٢) من الآية ٧٠ من سورة الاسراء •

قال الشـــيخ الباحث : « ونقل صـــاحب : أقرب الموارد قل عن أبى زيد قال : سمعت الكلابيين يقولون : رجل شـــجاع ولا توصف به المرأة »(١٢٣) .

وأقول له : ان « الشجاعة » صـــفة غالبة فى الرجال وهـــذا بحكم الفطرة التى فطر الله الناس عليهـــا فمن أين تأتى الاهانة للمرأة ؟ ومن أين كان احتقارها ؟ أترى لن تكون الحروب؟ولن يكون الدفاع والذود عن الأوطـــان ؟ للرجال أم للنســـاء ؟ بالطبـــع للرجال ومن هنـــا كانت « الشجاعة » للرجال صفة ولم تكن للمرأة ..

وفيما نقله عن « أقرب الموارد » أن العـــرب تقول : ثوب جديد وجبة جديد ولا يجوز جديدة(١٢٤) .

ثم قال تعليقـــا على ذلك : « ولو كان (فعيل) ــ كما يقولون ــ يستوى فيه المذكر والمؤنث لمـــا قال : ولا يجوز جديدة »(١٢٥) .

وأقول له : أتريد أن تلغى هذه القاعدة العربية الأصيلة أيضا ؟ ان فى هذا دليلا قويا وواضحا على التمحل لاثبـــات ما ذهب اليه ــ ومن العيب أن تبنى الحقائق الثابتة والقواعد المقررة على التمحل ..

كلمة لا بد منهـــا :

وبعد هذه المحاولة التى قصدت من ورائها الدفاع عن لغة العرب لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف أقول للشيخ الكاتب :

كنت أود أن تكون حســـن الظن بلغة العروبة والاسلام .. واننا

---

(١٢٣) انظر مجلة العربى ص١١٩ .
(١٢٤) المرجع السابق نفسه .
(١٢٥) المرجع السابق نفسه .

اذا أردنا البحث فى أسرار اللغـــة فلابد أن يكون البحث للارتفاع بهـــا لاللحط من شأنها ..وان لغتنا تحتاج فقط الى من يفهم أسرارها ليؤديها كما أراد الله لها وكما أداها أهلها ..

وان العربى القديم حين تكلم بها لم يعمل لها فكرا ولم يقدح لها زندا .. ولم يكن هناك قانون يحكمه لأنها فطرته وسليقته ..

وأقول له : ان ما زعمته فى مقالك دعوة للتشـــكيك فى لغة القرآن الكريم .. وما رأيك لو أن هذا المقال وقع فى يد أحد المستشرقين من أعداء الاسلام ؟ لاشك أنه سيطير فرحا بهذا السر الخطير الذى اكتشفه أحد أبناء العربية والاسلام ..

دعوا لغتنا الجميلة تنعم بجمالها ويتغنى أهلها برقتهـــا وعذوبتها ورددوا ما قاله حافظ ابراهيم فى حقها :

أنا البحر فى أحشـــــائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى ؟!(١٢٦)

وأخيرا أقول للكاتب متســـائلا : هـــذه لغة العرب .. وهؤلاء هم العرب أهانوا المرأة واحتقروها ـــ كما زعمت ـــ فهل لديك البديل الذى يعيـــد للمرأة كرامتهـــــا ؟! كنت أود أن تكتشف سرا ننعم به لا سرا نشـــقى به ..

د. على السنوسى محمد حسين الزيات
المدرس فى قسم اللغويات فى كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بأسيوط

جرجـــا فى يوم الثـــلاثاء
٢٤ من يناير سنة ١٩٨٩م

---

(١٢٦) انظر ديوان حافظ ابراهيم ١/١٩٥ ضبط وتصحيح الأستاذ أحمد أمين وآخرين طبعة سابعة المطبعة الأميرية ١٩٥٥م .